النواحي السلبية

ولستُ هنا اهتم بهذا الجانب لشيء كاهتمامي ببعض النواحي السلبية التي لها تأثيرٌ سلبي على ديننا وأدبنا ولم يأخذ حقه منَ الإيضاح والتبيين،لمن يجهله شيء مما ترمي إليه براعة بعض المفلقين في تزويق وتنميق الكلام، والذين ينصح الشاعر العربي الفصيح بأن لا نكون على شاكلتهم ، فيقول:

وما من كاتبٍ إلا سيفنا ويبقي الدهرَ ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرّك في القيامة أن تراه

ومن ذلك ما ذهب إليه الشاعر امرؤ القيس(١)مثلاً،عند ما كان أبوه ملك قبيلة،وكان هو ماردا فاسد الأخلاق يعاقر الخمر،ويطارد الفتيات الحسان،فأدبه أبوه فلما لم ينجع فيه التأديب،طرده،فأخذ ينشد الأشعار، مخالفاً لما عليه أهل عصره،وعليه غيرهم من نشأة الدنيا إلى قيام الساعة،من أن الشرف والعفة أساس الأمور التي يجب أن يتحلى بها الإنسان،وأن العشق دلالة واضحة على الشرف والعفة والشجاعة،فتجدهم لايبني منهم شاعرِ قصيدة إلا شببها بالغزل حتى وأن كانت مدحاً لذي شأنٍ كبير،كما في قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول(ص) التي استهلها بذكر عشيقته،ثم أخذ يمدح النبي (ص) ،أما من كا ن منفياً لسوء عمله،وممقوتاً عند كل من يعز عليه ما يفعله،ويسره أن يعود إلى الاستقامة والصلاح،وعند من يخشى سؤ تصرفه،أو يخشى أن يعاب عليه خدنه ومجاراته،فإنه وأن ذكر أن له عشيقة من باب الخيال الشعري،وصرف نظر السامعين عما هو عليه من مخالفة الأبطال الذين محبوبين عند الفتيات لشجاعتهم وحسن ذكرهم،إلا أن عشيقته باسم مستعار غير معروفة،أو دون ذكر اسمها،فبدلاً من أن يتحدث عن عفتها تحدث عن فجورها،ولعله يقصد بذلك افتراء حجة وهمية ليثير غضب قومه عليه،وليولّد لديهم التشكيك بشرفهم،فيجعل من الغزل هجاء،كقوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلَه وجارتها أمّ الرباب بمأسلِ (٢)
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزةٍ فقالت لك الويلات إنك مرجلي

---

١ **امرؤ القيس** :انظر تراجم الشعراء من هذا الباب .

٢٢ **كدأبك**:مثل عادتك وشأنك.أي مثلك.**أمّ الحويرث** :أم الحويرث وهو تصغير الحارث ،وهو الشبل أي ولد الأسد.أي زوجة ملك الغابة ويوحي بذلك إلى أنه يستطيع وكما دأب واعتاد عليه بلوغَ زوجات سادة القوم.أوربما قصد بالحويرث الإشارة إلى أنه ابن **الحارث الأكبر** وهو قاتل **أبي امرئ القيس** وملك **كندة** بعده، ويقصد بذلك هجاءً من باب التعريض .**قبلَها** : تقبيلها .**أم الرباب** : البياض على التشبيه ببياض

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا أمرؤ القيس فانزلِ
أفاطم مهلاً هذا التدلل وإن كنتِ قد أزمعتِ صرمي فأجملي

إلى قوله:

وبيضة خدرٍ لا يرام حجابـها تمتعت من لهوٍ بـها غيرِ معجلِ (١)
تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علي حراصاً لو يسرّون مقتلي
فقالت يمين الله ما لك حيلةٌ وما أرَى عنك الغواية تنجلي

أليس ذلك من أكذب الشعر ؟ ! لم لا ، وهو مجاهرة بالفجور وفاحشة وأسوأ السبل في الدنيا والآخرة ، وليس من الفخر بشيء،ولا يتجرأ على التفوّه به أيّ إنسانٍ يؤمن بالحساب ٠ فمن الدلائل على أنه كاذباً كونه يرمز إلى اسم عشيقته بأسماء مستعارة كثيرة مثل بيضة الخدر ، وأم الحويرث وفاطم أي فاطمة ، وعنيزة ونحو ذلك ، على عكس ما عليه الشعراء الشرفاء الذين لهم معشوقات حقيقةً فيصرحون بذكر أسمائهن ، ويرون أن من الفخر أن يكونون معشوقين ، فالدعارة لم ولن تكون فخراً لصاحبها حتى وأن كان هناك من هو فاسد الخلق،فهو لا ذكر له بين الناس ولا يألفون الاختلاط به ، والحديث عنه٠فيصدق على ذلك قول الرب جلا وعلا : " يقولون ما لا يفعلون "٠ فالأمر واضح أنه لو كان يقصد بذلك أنه فاعل لهذا الأمر المشين لما قال عن نفسه أمراً يعاب عليه ، ولكنه إذا غضب الإنسان قد يقول في من غضب عليه كلاماً غير طيب لإغضابه ،كأن يعيره بشرفه الذي هو أعز ما يملك ، وينسب فعل ذلك إلى نفسه ، حتى لا يدع مجالاً لتكذيب ما يقول ، ولهذا قالوا في المثل : " عثرة القدم أسهل من عثرة اللسان " ، وقال امرؤ القيس نفسه :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزانِ

الرباب وهو السحاب،أو الرباب الجماعات التي تتكون كل جماعة منها من عشرة ٠ وكل المعنيين وارد عنده ، فالمخبيئة ذات رباب أي بياض ، ومضمون سياق كلامه يدل على تفخيم الأمر كقوله أم الحويرث ، وتجاوزت حراسا حراصاً ومعشراً إليها لو يسرّون مقتلي ٠

١ **وبيضة خدرٍ** : **الواو** واو رُبّ للكثرة ٠ و**رُبَّ** للكثرة : قريب من معنى كم الخبرية لا الاستفهامية ٠ أي كما لو قال : كم بيضة خدرٍ تمتعت بها ٠ بقصد كثير من نوع بيضة الخدر تمتع بها ٠ **و واو رُبّ** :إذا سبق رُبَّ حُذف رُبَ وناب عنه الواو ٠ **بيضة** : فتاة مخبئة ، أي يوضع لها حجابٌ في مكان خاص من المحرم ، فلا تخرج منه ، فلا تتعرض لأشعة الشمس ، ولفح الرياح ، للافتخار بجمالها وشرفها ، وعادةً ما تكون ابنة شيخ قبيلة ٠

فلم يقف أمرؤ القيس عند هذا الحد من أن اللسان،أهم ما يمكن أن يصون صاحبه ، أو يهلكه إذا مس به شرف غيره ، وتلفظ بما فيه إهانة لغيره ، وإنما أخذ يقتل أي بنتٍ تولد له ، مخافة أن يقال عنه ما قال هو عن غيره ، حتى أن بعض زوجاته تخفي بنتها عند غيرها وتشيع أنها ماتت إذا كان قد طلقها ، فيبحث عن البنت حتى يجدها فيقتلها ومن الحكم التي قالها أمرؤ القيس ، اعترافه بقناعته من السعي في كل بلدٍ ، في الحصول على العودة سالماً وهو قوله :

وقد طفت في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ

وقوله:

لعمرك ما سّعْدٌ بخلّة آثمٍ ولا نأناءٍ يوم الحفاظ و لا حَصِرِ

فهو يقسم بعمر المخاطب أنه لا سعادة في صداقة مذنبٍ أو فاسد،ولا بصداقة ضعيف عن حفظ شرفه ومحرمه، ولا كاره للنساء٠فكأنه يعترف بأنه لا فخر بفحشه بذكر النساء،ولا بمن يضعف عن حمى ما في ذماره مما يجب عليه التغضب له والدفاع عنه٠وأشتهر من الشعراء الشعبيين الشاعر بصري الوضيحي،بطرق الغزل الهزلي المبطن،كما طرقه امرؤ القيس،وسلكا فيه مسلك من أضنت كاهله قيود العادات والتقاليد،وسقط بيده دون تحقيق ما يطمح إليه،فعزى ذلك إلى أمرٍ غير ما عليه الناس،يشدّ من أزره فيه الشعر،حتى تُحاك حول هذا النوع من الشعراء بعض الأساطير الخرافية،التي تستند إلى تفسير بعض أشعاره الموهمة بشيء وهو غير صحيح٠وإلا لماذا عنترة بن شداد العبسي الشجاع المشهور بشجاعته لم يعزز صدق شجاعته وجراءته بفعل مثل هذه الأمور،بل وصف نفسه بعكس ذلك ، على الرغم من أنه جاهلي عاش قبل بعث النبي (ص) ومع ذلك يقول :

يا شاة ما قنصٌ لمن حلّت له حرمتْ عليّ وليتها لم تحرمِ

فهو يقول عن جارته التي يرى أنها في حماه ، ومن واجبه أن يحميها من الأعداء،يا شاة قنص،أي كما يقال في العامية:" شاة الذئب " أي التي معرضة لأكل الذئب إياها لعدم وجود من يحميها منه،وذلك إذا وجدت مفقودة،وهو يعني بها التي ليس لديها رجالٌ يحمونها سواه،فهي كالمفقودة،بدليل أنهم يأتون إليه قومه إذا غزي عليهم ويطلبون منه أن يدافع عنهم٠ فيقول: حرمت علي،ومن الذي حرمها عليه،وهو في العصر الجاهلي ،وفي هذا دليلٌ على معرفة وتمييز الحلال من الحرام بما غرزه رب العالمين بالأنفس من الغرائز،وبما ألهمها من معرفة مالها وما عليها٠كما ألهم الحيوانات بمعرفة ما ينفعها وما يضرها من الأشجار المريئة النافعة أو الأشجار السامة الضارة،وكره إليها رؤية السباع المفترسة،وحبب إليها قرب

ما لا يضرها من أشجارٍ تلوذ بالاختفاء خلفها،أو بشر عهدت فيهم الأنس والرفق.وأين ذلك من قول العباس بن الأحنف [1] :

لا يُضْمِرُ السوءَ إن طالَ الجلوسُ به ... عفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظرِ

و مثله قول نفطويه[2] :

أهوى النساءَ وأهوى أن أجالسَها ... وليس لي في خَنَا ما بيننا وطَرَ

وقول المتنبي :

إنّي على شغفي بما في خُمْرِهَا ... لأعفُّ عَمَّا في سراويلاتهَا[3]
وترى الفُتُوّةَ والمروءة والأُبُوَّ ... ةَ فِيِّ كلِّ مليحةٍ ضَرّاتَهَا[4]
هن الثلاثُ المانعاتي لذّتي ... في خَلْوَتي لا الخَوْفُ من تَبِعاتَهَا[5]
ومطالبٍ فيها الهلاكُ أتيتها ... ثبت الجنَانِ كأنّني لم آتَهَا[6]
ومقانبٍ بمقانبٍ غادرتها ... أقوات وحشٍ كنَّ من أقواتِهَا[7]

---

[1] **العباس بن الأحنف** :توفى سنة ٨٠٨ م،نحو ١٨٦هـ.شاعر غزل بغدادي .له أخبار مع **الرشيد**. له ديوان.

[2] **نفطويه** :إبراهيم ،توفى سنة ٩٣٥ م. إمام في النحو وعالمٌ بارعٌ في الأدب ، ولد في **واسط** في **العراق**، وتوفى في **بغداد**.

[3] **شَغَف** : الولع وأقصى الحُبّ. **خُمْر** : مفردها خِمَار وهو ما تغطي به المرأة رأسها.**أعفُّ** : امتنع .يقول : مع أنني مولعٌ فيما تحت خمارها من وجهٍ جميل إلا أنني لا أفكر بغيره مما لا يحل .

[4] **الفتوة** :الكرم والسخاء. **المروّة** : الإنسانية. **الأبوة**: الأنفة وعزة النفس، ومن معاني الأبوة الآباء ، مثل العمومة والخؤولة. **مليحة** : فتاة جميلة .**ضرّات** :مفردها ضرّة وهي امرأة الزوج.والمعنى : ترى كل فتاة جميلة أن هذه الصفات الحميدة ، وهي الكرم والإنسانية وعزة النفس شريكات لها فيّ.

[5] **تبعات اللذّة** : عواقبها السيئة.تَبِعات جمع تَبِعة وهي ما يترتب على الفعل من الخير أو الشر .إلاّ أن استعمالها في الشرّ أكثر.

[6] **ثبت الجَنَان** : ثابت القلب.**آتِ** : آتي .بمعنى أجيء حذف من آخره حرف العلّة الياء لأنه مجزوم بلم.أي أتي المقاصد الشريفة السامية على ما يواجهني دونها من هلاك ، وأمتنع عما سواها في حين أنني خلوٌ لا يراني أو يمنعني عنها أحد.

[7] **مقانب** : جمع مقنب أي طائفة من الخيل تجتمع للغارة. **غادرتها** : تركتها.أي رب جيش من الفرسان لقيته بمثله من صحبي ،فتركته قوتاً للوحوش.

ومن الشواهد على أن امرئ القيس حالة شاذة في فحشه بذكر النساء،وكلامه عهراً علني غير منطقي،في عصرٍ كأي عصرٍ الزمام فيه بيد الشرف والعفة وعزة النفس والشجاعة وحفظ الأمانة ؛ فالسموأل بن حيان بن عادياء ([1]) وهو يهودي الديانة،مضرب المثل في الأمانة،وذلك أن امرئ القيس لمّا بلغه قتل أبيه،ذهب إلى تيماء،ونزل بالسموأل،فسأله أن يجيره،فقال: أنا لا أجير الملوك ولا أطيق حربهم،فأودعه أدراعاً وانصرف عنه يريد قيصر ملك الروم٠فيرسل قاتل أبيه رجلاً إلى السموأل كي يطالبه بالسلاح الذي أودعه امرؤ القيس عنده،فلما انتهى الرسول إلى حصن السموأل اغلق الحصن دونه٠وكان للسموأل ابن خارج الحصن يتصيد، فأخذه المرسول إلى الحارث وهو قاتل حجر أبا امرئ القيس،فقال الحارث للسموأل:ادفع إليّ السلاح وإلا قتلت ابنك،فأبى أن يدفع إليه ذلك وقال له:أسيرك فإني لا أدفع إليك شيئاً،فقتله،فضربت العرب المثل بالسموأل في الوفاء٠وللسموأل قصيدة يفخر بها باتصافه هو وقومه على قلتهم بالخصال الحميدة،من عزة النفس والشرف وحسن الجوار، والشجاعة، وغير ذلك مما لا حياة طيبة للإنسان دونه،انظر إليها في باب الحكم من هذا الديوان،ومطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلُ

لهذا أقول أن الشعركما قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم،" حسنه حسن وقبيحه قبيح"وعلى القارئ أن يميز بين الرديء والجيد والنافع والضارمنه٠وأن يعمل فكره في تأمل مقاصده،ويحكّم عقله في معرفة أسبابه وشخصية قائله،فلا يظن أن كل ما قاله قائلٌ يوافقه عليه غيره٠ أما الصفات الشعرية التي ذكرتها سالفاً عن الشعر،بأنه يعطي مدلولاً أكثر من الكلام غير المنظوم،فذلك يتمثل بالوصف الممثّل بالخيال مثل عن طريق التشبيه كقول أحد الشعراء يصف الموت:

إذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

فيتميز الشعر عما سواه من الكلام بأنه يصور المعنى بتشبيهٍ يجسّد المقصود منه،وهذا لا يستساغ بالكلام غير الموزون٠أوبالمدح أو بالاحتجاج بما يصورَ الموضوع بصورة لها تأثير على نفس السامع،كقول الشاعرة الشعبية ظاهرة الشرارية :

يا عبيد عيو يهتدون السبيله متكبرينِ كيف للحق يمشون
الحق ظلمى والمصقل دليله ولا تنقضي حاجات من يتبع الهون

[1] **السموأل** :شاعر جاهلي يهودي ٠صاحب الحصن الأبلق (في **تيماء**)، يُضرب به المثل في الوفاء توفي سنة٠٥٦٠م حوالي ٦٢ قبل الهجرة٠انظر تراجم الشعراء ص٣٣ ٠

وهذا كلام حقيقياً ، واقعاً موقع الصدق والتأثير،فالحق ظلام على من يجهل الحق،والسيف (المصقل)في هذه الحال التي امتنع فيها خصومها عن الخضوع للحق هو المرشد الذي يري الحق حق والباطل باطل،عند ما يتكبر بعض الخصوم،وينقض ما تم من العهود والمواثيق٠قال تعالى :" فإنَّهَا لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور" الحج ٤٦ ٠قيل في تفسير ذلك:أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر،وإنما عمى البصيرة،فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر٠فهنا نرى كم يتأثر العامة من الناس بتعاليم الدين الإسلامي،وكم يستطيعون بملكتهم الشعرية الإجادة في الإبداع الشعري،حتى ترى في أشعارهم ما يثير الدهشة والإعجاب من أبياتٍ تحمل معاني كثيرة،في صياغة منسقة موجزة،تفضي بمعانيها إلى فهم السامع دون إسهابٍ مملاً،أو تعقيدٍ لفظي،يعتريه شيءٌ من الركاكة أو الغموض٠يقول الأمام تركي بن سعود :

يوم أن كلِ من عميله تبرأ حطيت الأجرب لي عميلِ مباري (١)

ويقول أبو تمام(٢) :

السيف أصدق أنباءَ من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أي أخالف في بعض الأحيان من يقول:" صديقي بالزمان كتاب،بل السيف أصدق إفهامٍ لمن لا يبصر الحق٠ويقول آخر إن الشجاعة أعز مكان،والكتاب أخير جليس،وهو قوله:

أعز مكان في الدُنى سرج سابحٍ وخير جليس في الزمان كتاب

ويقول عبيد الرشيد ، مخاطباً الأمام فيصل بن تركي بن سعود :

يا شيخ لبست البزازين الأجراس ولا كل من حط الرسن به يقادي(٣)

الحكم ما ياتـي بحبرِ بقرطاس إلا بضرب مصقلات الهنادي

إلا بسيفِ شذرته تقطع الراس يطوّع الحضران هي والبوادي

---

١ **الأجرب**: سـيف للإمام **تركي بن سـعود** ، قد دفنه حتى أثر الدفن فيه ، فلما عاد إليه وجده قد جَرِبَ من الصداء٠أي أصبح كالأجرب من الحلأ٠

٢ **أبو تمام** : حبيب بن أوس الطائي، توفي سنة٨٤٥ م٠شاعر عباسيّ٠انظر تراجم الشعراء٠

٣ **البزازين**: جمع بزون وهو القط، ويقصد به من يقرأ في صدره على التشبيه٠وهو على معنى النصح بعدم أخذ رأي كلّ خطيبٍ ما لم تعرف نواياه ، وهو يعني أن الخطباء بعضـهم كالشـعراء ، لهم مقاصـد خاصـة أحياناً ، والله

الشعر تعبيرٌ ذاتي

والشعر تعبيرٌ ذاتي لأنه يعكسه الشاعر على نفسه،ثم يصوره، فيحمل غيره على الانفعال العاطفي معه٠ماعدا شعر المناسبات،الذي هو انفعال عابر،لا يعتمد فيه على الحماس والعاطفة المهيجة إلا بظروف خاصة،وإلا فهو أشبه ما يكون بالخطبة٠ولابد للشاعر من تجاربٌ له أو لغيره،يستمدَ منها معلوماته،ويثري بها ثقافته،على مبدأ الصدق،صدق الإحساس،سواء عاني أم تأمّل واحس٠ولذلك عناصر منها الفكر والعاطفة والخيال،ولابد للقصيدة من مراعاة جودة الصنعة من حيث موضوعها ومشاعرها،وترتيب صورها،وتنسيق مدلولاتها٠وللشعر مستهلٌ يسمّى الإجادة فيه براعة الاستهلال،وخاتمة تسمّى حسن التخلص٠فيجب أن يكون للقصيدة مستهلٌ دالاً على مضمونها،ليس فيه تشاؤم،أو صعوبة أو خشونة،وخاتمة ينتقل إليها الشاعر بلباقة،كما ينتقل من غرض إلى غرض دون أن يحس السامع ذلك٠ومما نلاحظ أن للشعراء بدايات يأخذونها عن بعضهم بصورة تقليدية،كالوقوف على الأطلال،ومسألتها،أو نسبة الشاعر القول إلى نفسه،أو بإرسال مطية أو سيارة أو بإرقاب رجمٍ٠ونهاياتٌ تتسم بالطابع الإسلامي من بداية فجر الإسلام إلى عصرنا الحالي، كالصلاة على النبي،أو نحو ذلك٠ومما لاشك فيه أن للتقليد دورٌ هامٌ في بناء الشعر،لا التقليد بمعناه المباشر الذي لا يخرج عن المحاكاة والنسخ وغيره من السرقة،والنقل وإنما من حيث النظر إلى أساليب النظم،وأوزان الشعر والمرغوب منها وغير المرغوب، والكلام المألوف،وتحاشى ما سواه من الكلام الذي يعتبر منفراً وسفسفة،بالنظر إلى كثرة تداوله و عامية عرفه،مما يدل على ضحالة ثقافة شاعره،وقلة اطلاعه على سير وإنتاج الأولين،وإبداع من حوله من الأدباء و الشعراء المجيدين،والمسايرة في التجديد في إطار المفهوم

أعلم ، كما أن في معناه إشارة إلى قصة مشهورة للقط والفئران ، عندما اقترح أحد الفئران أن يلبّسون القط جرساً ليسمعوا صوت الجرس فيهربوا عنه ، فقيل له: لكن من يستطيع يقترب من القط فيضع الجرس في رقبته ، ولا يخشى أن يأكله القط ؟٠ ومعنى كلامه قريب من معنى قول **المعري** في رياء بعض العبّاد، وهو قوله:

لعل أناساً في المحاريب خوّفوا ... بآيٍ كناسٍ في المشارب أطربوا

إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمها ... فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

وقوله لبّست على معنى دللت وفوّضت ولو لم نكن نعتقد ذلك لقلنا أن معنى كلامه على معنى قول **المتنبي**:

ومَن يجعل الضرغامَ بازاً لصيده ... تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

رأيتُكَ محض الحلمِ في محضِ قُدْرَةٍ ... ولو شئتَ كان الحِلْمُ مِنْكَ المهنّدا

إذا أنت أكرمت الكريمَ ملكته ... وأن أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا

الشعبي،الخالي من الغموض والتعقيد،والرمزية التي لا تخدم أي غرضِ شعري يوجب الاستشهاد بالشعر،إن لم تكن توحي بالإضلال والانحراف عما عليه سالف الأمة، والتغرير بمن لا يعي القصد، قال عز من قائل: " يوحي بعضهم إلى بعضِ زخرف القول غروراً "الأنعام١١٢ ٠

المؤلف/ نافل علي الحربي ١٤٢٥/٠١/٠١هـ